أساليب الحرب النَّفْسِيَّة في الإسلام وخصائصها

د. علي عيسى عبد الرحمن (*)

مُقَدِّمَة:

الحرب النَّفْسِيَّة اليوم هي أحد أفتك أسلحة العصر، حيث تمارس على نطاق واسع بهدف النَّيل من الخصم والتقليل من شأنه.

مورست الحرب النَّفْسِيَّة منذ قديم الزمان وتذكر لنا آي القرآن الكريم الممارسة النَّفْسِيَّة التي ضلَّل بموجبها إبليس ـ عليه اللَّعنة ـ نبي الله آدم عليه السلام. كما تبيِّن لنا الآيات القرآنية ما دار من قصص الأنبياء، وكيف كان الكافرون يقلّلون من شأن الأنبياء ـ عليهم السَّلام ـ.

يتناول هذا البحث تعريف الحرب النَّفْسِيَّة وتاريخها وأهدافها، كما يتناول أساليب الحرب النَّفْسِيَّة المستخدمة في الإسلام. وتناول المبحث الأخير من البحث خصائص الحرب النَّفْسِيَّة في الإسلام، والتي تميِّزها عن سائر العمليات النَّفْسِيَّة الأخرى.

تطوّرت الحرب النَّفْسِيَّة في ظل العولمة، وصارت حرب حضارات، وهذا البحث هو جهد متواضع يعكس جانباً من الفكر الإسلامي فيما يلي الاستخدامات النَّفْسِيَّة.

.. والله من وراء القصد وهو يهدي السَّبيل ..

المبحث الأول
الحرب النَّفْسِيَّة: التاريخ والأهداف

تعريف الحرب النَّفْسِيَّة:

يرى الباحثون أنَّ الحرب النَّفْسِيَّة هي: "جهود سلبية أو إيجابية ذات طبيعة سياسية أو عسكرية أو اقتصادية تصدر من فرد أو جماعة أو دولة أو عدة دول متحالفة، وتوجَّه ضد الفرد والجماعة أو الدَّولة الصديقة أو

(*) أستاذ مساعد بكلية الإعلام ـ جامعة أم درمان الإسلامية (السُّودان).

المعادية على حد سواء، بهدف التأثير على المعنويات، والاتجاهات، والآراء، والأفكار، والمبادئ، والمعتقدات"[1].

وتشمل الحرب النَّفْسِيَّة بمعناها الواسع استخدام علم النَّفس لخدمة الحرب بأساليب: الدِّعاية، والإشاعة، والمقاطعة الاقتصادية، والمناورة السياسية، وغسيل الدّماغ.

إنَّ الحرب النَّفْسِيَّة توجَّه بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وأحياناً مغلفة بغطاء التسلية أو الثقافة أو العلم أو غيرها من النواحي الاقتصادية أو الاجتماعية أو الرياضية، بهدف التأثير في سلوك الفرد أو المجتمع أو الدَّولة عن طريق العمل على تحوير أو تغيير أو محو المعلومات التي لديه، والتشبث بالاستناد إليها بوجه أرادته نحو سلوك معين أو القيام باتخاذ فعل أو قرار محدد.

وقد تهدف الحرب النَّفْسِيَّة من خلال ضخ أو توجيه معلومات جديدة أو مغايرة للحقيقة إلى تغيير معلومات صحيحة راسخة أو التشكيك فيها أو إضعافها أو محوها بغية جعل فراغ معرفي أو إدخال معارف جديدة أو مشوهة لفكر الإنسان بقصد التأثير في سلوكه بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

يكمن أساس الحرب النَّفْسِيَّة في أنَّها تعمل على تغيير أو تحوير أو إضعاف أو طرح معلومات ومعارف جديدة بغية التأثير على معلومات الطرف الآخر، ومن خلالها يتغيَّر سلوكه وفعله، ويقترن مع الهدف الذي يقصد إليه الجهة التي وجَّهت الحرب النَّفْسِيَّة[2].

وتتميَّز الحرب النَّفْسِيَّة عن غيرها من الوسائل بأنَّها تعمل على تسيير وتوجيه الطرف المعني من خلال التأثير في إرادته بعد أنْ تكون قد غيَّرت معلوماته ومعرفته، "وعملية التأثير بوساطة الحرب النَّفْسِيَّة تتجلى في إحداث التغيير في القيم السائدة والإرادة لدى الفرد، والمجتمع، والدَّولة، وعلى مراحل يمكن تصنيفها بمرحلة الاهتمام، فالإدراك ثم التخريب، فالتبني أو الرفض.

---

(١) الحرب النَّفْسِيَّة وأساليب مواجهتها: وهيب الكبيسي، حوليّات الإعلام العسكري، العراق، ١٩٩٣م.

(٢) الرَّأي العام والحرب النَّفْسِيَّة: د. مختار التهامي، دار المعارف، مصر، بدون تاريخ، ص ١٠٢.

ويلحظ أنَّ جزئية وشمولية التغيير تتوقَّف على ظروف المرحلة السائدة في هذا البلد أو ذاك، والعوامل الاجتماعية القطرية، والخصائص الاجتماعية والفردية المختلفة، وكذلك تغيير النسبة من حيث الزمن بين فترة قصيرة، ومتوسطة، وطويلة[1].

وهي بلا شك تُعَدُّ أقل الأسلحة كلفة إذا ما أحسن استخدامها، كما أنَّها تؤثر تأثيراً فعَّالاً في تقليل أمد الحرب العسكرية. كما أنَّ إغفالها وعدم إدراك أهميتها يؤدي إلى التفريط بالأسلحة العادية الفعَّالة، وهي عملية مستمرة، لا يقتصر استخدامها وقت الحرب فقط؛ بل قبلها وبعدها بوقت طويل، كما وأنَّه لا يمكن معرفة النجاح أو الفشل فيها إلاَّ بعد أشهر، أو ربما سنين من شنها[2].

تاريخ الحرب النَّفْسِيَّة:

سيدنا آدم عليه السلام ـ أبو الأنبياء ـ أول من مورست ضدّه الحرب النَّفْسِيَّة من قبل إبليس ـ عليه اللَّعنة ـ، وتبيِّن الآيات بوضوح العمل الذي يقوم به الشيطان في التضليل، وهو شكل من أشكال الحرب النَّفْسِيَّة، كما تتناول الآيات صوراً وأساليب مختلفة للحرب النَّفْسِيَّة.

يبيِّن القرآن أنَّ الشيطان هو الذي يوسوس ويحرِّك دوافع الشرّ والانحراف، قال تعالى: ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن

(١) مجلة الأمن والحياة: العدد ٥٠، سنة ١٩٨٩م، ص ١٨.
(٢) مجلة سلسلة الثقافة الثورية: العراق، العدد ٢٩٠، سنة ١٩٩٤م.

تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١٩-٢٣].

ومعنى قوله تعالى: ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴾: "أي جراهما إلى المعصية"(١).

إنَّ ممارسات الشيطان التضليلية ضدّ البشر بدأت منذ أنَّ دَلَّ سيدنا آدم عليه السلام على أكل الشجرة المحرَّمة "وكان آدم عليه السلام قد قال الله له: لا تأكل من هذه الشجرة، وعيَّن له شجرة، فلما وصفها له إبليس أنَّها شجرة الخلد، التي من أكل منها كان ملكاً مخلَّداً؛ عمد آدم عليه السلام فأكلها، بتأويل أنَّ النَّهي كان للنَّدب لا على التحريم، وسارعت إلى ذلك حواء، ثم نَصَّ الله تعالى على آدم أنه عصى"(٢).

إنَّ الإنسان قد تعتريه بعض التطلُّعات لتحقيق الذات، وقد يَعْبُرُ طرقاً مستقيمة لتحقيقها أو منحرفة، وما فعله آدم عليه السلام هو مخالفة الحقّ بعد تزيين الشيطان له وتضليله، "إنَّ الله تعالى قد هيّأ كل أسباب الرفاهية والنَّعيم لآدم عليه السلام في الجنَّة، إلاَّ أنَّ نزعاته البشرية، وتطلُّعاته المادية، لم تتوقّف، فما كاد الشيطان يوسوس له حتى انحرف إلى الخطيئة، وعصى أوامر الخالق"(٣).

وكما تحدّث القرآن الكريم عن عمل الشيطان في الغواية والتضليل، فقد تحدّثت السُّنَّة عن العمل ذاته، فعن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه: (إنَّ كلَّ مال منحت عبادي فهو لهم حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحَرَّمَتْ عليهم ما أَحْلَلْتُ لهم، وأَمَرَتْهُم أنْ يشركوا بي ما لم أنزِّل به سلطاناً، وإنَّ الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلاَّ بقايا من أهل الكتاب)(٤).

(١) فتح القدير: الشوكاني، دار المعارف، بيروت، ١٩٧٨م.
(٢) المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لابن عطية الأندلسي، مؤسسة العلوم، الدوحة ١٩٨٨م، المجلد العاشر، ص ١٠٥.
(٣) الدّراسة العلميّة للسُّلوك الإجرامي: د. نبيل توفيق، دار الشروق، جدة، ١٩٨٣م، ص ٢٨٧.
(٤) صحيح مسلم، كتاب الجنَّة وصفة نعيمها وأهلها، برقم ٦٣.

توصَّل علماء الاجتماع إلى كون الإنسان كائن حي يتفاعل مع بيئته، فيؤثّر ويتأثّر بها، إيجابياً أو سلبياً، فمنذ القدم اعتمد الإنسان على فطنته وقدرته الذاتية لتطوير حدسه، وتمكَّن من تحليل ما يدور حوله من صراعات.

ومن خلال المعايشة الميدانية والمراقبة؛ استطاع الإنسان أنْ يتوصَّل إلى استعمال الوسائل النَّفْسِيَّة في التأثير على أعدائه، وبثّ الرُّعب والفزع لديهم، حتى أصبح لديه - ومن خلال التراكم الزمني - ما يعرف بـ (الحرب النَّفْسِيَّة).

ومنذ أقدم العصور استخدم العراقيون القدماء الحرب النَّفْسِيَّة، والمنحوتات والألواح الجدارية شاهد على ذلك. حيث استعمل الآشوريون[1] الهدايا في محاولة لكسب ودّ الأعداء، وكذلك الاستعراضات ذات الطابع العسكري، الذي يُراد به بثّ الرُّعب والخوف لدى الأعداء، وكذلك استعمال الخدع المباغتة.

وقد برع الصِّينيون في الحرب النَّفْسِيَّة منذ أقدم العصور، وقد أدركوا أهمية العلاقات الفردية في تكوين التحالفات، وأعطوا للتثقيف الذاتي أهمية كبرى[2]، وقد أصبحوا بذلك الرواد في تقويم الأفكار وتحويل الاتجاهات.

وقد لجأت (جنكيز خان) إلى أسلوب إرسال الجواسيس في بداية القرن الحادي عشر الميلادي[3]، لبثّ الرُّعب في نفوس الأعداء، من خلال التهويل، وإطلاق الشائعات، ومحاولة إضعاف معنويات المقاتلين.

لقد كانت كل هذه الأساليب المتبعة آنذاك عبارة عن أساليب بدائية، إلاَّ أنَّ التقدُّم العلمي والتكنولوجي، وقيام الثورة الصناعية، التي أحدثت ضجة في كل العلاقات الاجتماعية وفي عموم الحياة، واختراع الطباعة؛ كان له الأثر الكبير في تطوير الأساليب والطرق المتبّعة في الحرب النَّفْسِيَّة. فكان للصحف والمنشورات الأثر الكبير في التأثير على سلوك وعقول المجتمع، وخير مثال على ذلك ما قام به (نابليون بونابرت) أثناء حملته على مصر ١٧٩٨م، من خلال المنشورات التي وزعت على المصريين، للتأثير على العقل العربي المسلم في مصر، واستمالة عطفه،

(١) تخطيط وإدارة الحرب النَّفْسِيَّة في الجيوش: جاسم محمد جاسم، مطبعة الكلية الحربية، (د. ت)، ص ١٦.
(٢) الحرب النَّفْسِيَّة: فخرى الدباغ، دار الحُرِّيَّة، بغداد، ١٩٧٩م، ص ٦.
(٣) دراسات في الاتصال والدِّعاية: أحمد بدر، دار غريب، القاهرة، ١٩٧٧م، ص ٦٣.

وعدم مقاومته كفاتح مستعمر، وما ادّعاؤه الإسلام وبأنَّه لا يعارض النَّصرانية إلاَّ محاولة للتأثير على الفرد المصري.

وعند دراساتنا للحربين العالميتين نجد أنَّ الدُّول قد وضعت للحرب النَّفْسِيَّة المكانة الكبيرة، وذلك للاتصال الجماهيري عن طريق الدِّعاية، فكانت لـ (بريطانيا) أساليبها المعروفة كدولة، وهي التي أنشأت في وزارتها الخارجية عام ١٩١٤م مكتباً للدِّعاية، حيث نقلت تجربتها إلى ألمانيا الهتلرية، والولايات المتحدّة، وتبعها الاتحاد السوفيتي(١).

استغلت النازية هذه التجربة أكبر استغلال، فأسَّس الدكتور/ غويلز سنة ١٩٣٩م وزارة الدِّعاية، لمراقبة الشعب الألماني، وكذلك الدِّعاية النازية: (الألمان فوق الجميع)، و(الجيش الذي لا يُقْهَر)، وقد استسلمت للألمان جيوش بكاملها بدون قتال(٢).

واستخدمت الحركة الصُّهيونية في حربها ضد العرب الحرب النَّفْسِيَّة في محاولة التأثير علي العرب والمسلمين، فالحرب النَّفْسِيَّة ليست ظاهرة حديثة كما يُظَنُّ بعضهم، ولا هي ظاهرة معاصرة برزت في القرن العشرين؛ لأنَّها ـ في الواقع ـ ممارسة قديمة جداً، عرفها البشر ولجأ إليها الحُكَّام، والقادة الأذكياء، والبارعون منذ قديم العصور، إلاَّ أنَّ وجه الحداثة يكمن في التسمية فقط؛ لأنَّها استخدمت أول مرة في الحرب العالمية الثانية ـ على وجه التَّحديد ـ، ثم دخلت القواميس الحربية من عام ١٩٥٥م في الولايات المتحدة الأمريكية(٣).

أهداف الحرب النَّفْسِيَّة:

تهدف الحرب النَّفْسِيَّة إلى تحقيق مكاسب دعوية أو عسكرية بأقل ما يمكن من الجهود وبأقل كلفة، كما أنَّ الهدف العام للحرب النَّفْسِيَّة هو عقل الإنسان، وفكره، ونفسيته، وليس جسمه. كما تهدف إلى إحداث التغيير في ذات الإنسان، وبالذات في أفكاره واتجاهاته، وإلى تحطيم الروح المعنوية، وتقليل أمد الحرب العسكرية، حيث تكون الحرب النَّفْسِيَّة عاملاً فعَّالاً يمارس الهجوم على الأفكار والاتجاهات.

ويمكن إجمال أهداف الحرب النَّفْسِيَّة بما يأتي:

---

(١) الحرب النَّفْسِيَّة: صلاح نصر، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٨.

(٢) الحرب النَّفْسِيَّة: أكرم إسماعيل الدباغ، مطبعة الشعب، بغداد، ١٩٧٩م، ص ١٣.

(٣) دراسات في الحرب النَّفْسِيَّة: د. حميد تميم، دون ذكر المطبعة، ١٩٨٢م، ص ٣.

[١] زرع عدم الثِّقة في معتقدات العدو، قال تعالى: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [يونس: ٨١]، وقال تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ [طه: ٧٩].

[٢] زعزعة إيمان العدو بأهدافه ومبادئه، قال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [التوبة: ١٩].

[٣] إظهار عجز العدو عن تحقيق طموحاته، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنفال: ٣٦].

[٤] غرس بذور الفرقة بين العدو وحلفائه، وعرقلة أي تقارب سياسي أو عسكري، ويتضَّح ذلك من خلال نشاط نعيم بن مسعود في غزوة الأحزاب(١).

[٥] تقوية أواصر التعاون بين القوات المتحالفة، وبناء علاقات وطيدة مع الجهات الصديقة والمحايدة، والعمل على تعاون سكان المناطق المختلفة، قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾ [التوبة: ٤].

وكما ورد في سورة الروم حيث نرى استمالة القرآن لأهل الكتاب، كما في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ

(١) انظر ضمن هذا البحث إلى: أسلوب الخدعة ودور نعيم بن مسعود ﷺ.

غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾ فيه تقارب بين أهل الكتاب والمسلمين.

[٦] الحفاظ على الروح المعنوية للمجاهدين، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

المبحث الثاني
أساليب الحرب النَّفْسِيَّة في الإسلام

تحصين الرَّسول ﷺ ضدّ العمليات النَّفْسِيَّة المضادّة:

قال تعالى: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ١-٥].

هناك كثير من الآيات التي تتحدّث عن العمليات النَّفْسِيَّة ضد الرسول ﷺ، الذي يمثِّل رمز الهداية ومحور الحق، فقد أراد الكفار النَّيل منه، والنَّيل من التوجيهات الدَّعوية التي سفَّهت معتقداتهم، فكان لا بُدَّ من التَّصدّي للرسالة الخاتمة، انتصاراً للمعتقدات.

وكما قيل: (إنَّ الحرب أولها كلام)، فلا بُدَّ أنْ تبدأ جولات الكلام المتمثلة في الحرب النَّفْسِيَّة على الرسول ﷺ، فقد عبَّر المولى عزَّ وجلَّ

عن ذلك، قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣﴾ [القمر: ٢-٣].

كثيراً ما يقع الجدال بين الحقّ والباطل فتتدخل السماء، فعندما استهدف المشركون الرسول في نفسه؛ تعرَّضوا له بالأذى المعنوي، فاتهموه بـ (الأبتر)؛ لأنَّه ليس لديه أبناء ذكور يخلّدون ذكره، إذ مات جميع أبنائه صغاراً، فردّ عليهم القرآن بقوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر: ٣]، أي: إنَّ مبغضك وكارهك هو الذي سينقطع ذكره.

وقد أمرت آيات كثيرة النَّبي ﷺ بألاَّ يضيق ولا يحزن فيما يوجه إليه من حرب نفسيَّة، فقال تعالى ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝٧٠﴾ [النمل: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝١٢٧﴾ [النحل: ١٢٧].

هذه الآيات وغيرها بمثابة تحصين نفسي للرسول ﷺ والدَّعوة الإسلامية، حتى لا تتداعى أمام حرب الكفار النَّفْسِيَّة في ذلك الوقت، وقد كان تشديد القرآن الكريم علي النَّبي الخاتم ﷺ بألا يضعف أمام حربهم النَّفْسِيَّة، قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝١٢﴾ [هود: ١٢].

كما يزوِّد القرآن الكريم سيدنا محمد ﷺ بجرعات نفسيّة كبيرة، فيتحدّى الكفار، فيعجزوا عن مسايرة منطقه، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ

صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾ [هود: ١٣-١٤].

غسل المخ (الدّماغ):

إنَّ مصطلح (غسل الدماغ) يقع ضمن المصطلحات التي تُسْتَخدم في الحرب النَّفْسِيَّة، وأول ما أطلق بعد الحرب العالمية الثانية، من قِبَل الصَّحفي الأمريكي (إدوارد هنتر)، عن طريق ترجمته للكلمة الصينية (هي تاو)، التي معناها ـ لدى الصينيين ـ: اصطلاح الفكر، ويُراد به: تجريد العقل من ذخيرته ومعلوماته ومبادئه، وهو أيضاً تشكيل التفكير بطريقة التفجير، وتغيير الاتجاهات النَّفْسِيَّة، وهو محاولة توجيه الفكر الإنساني أو العمل الإنساني ضدّ رغبة الفرد أو ضدّ إرادته أو ضدّ ما يتفق مع أفكاره، ومعتقداته، وقيمه، فهو عملية إعادة تعليم، وهو عملية تحويل الإيمان أو العقيدة التي كفر بها، ثم الإيمان(١).

وقد اقترنت عملية (غسيل الدماغ) بالعالِم النَّفسي الروسي (بافلوف)، حيث ركَّز في أبحاثه على نظام الإشارات لإثبات نظرية (الفعل المنعكس الشرطي)، وتعني القيام بسلوك معيَّن نتيجة لمؤثّرات خارجية، ويمكن تمييز طبيعة الفرد الذاتية من بيئته(٢).

ويمكن تلخيص طرق (غسل الدماغ) التي تتبّع حديثاً في الخطوات التالية(٣):

[١] عزل الفرد اجتماعياً ومناداته برقم وليس باسم، واستغلال مؤثّرات الجو، والتَّعب، والجوع، والألم، والأساليب الأخرى مثل: الصدمات الكهربائية، واستخدام العقاقير المخدّرة، مثل: الكحول والمواد الكيميائية. وهذه كلّها تضعف قدرة الفرد على التحكُّم في إرادته، ثم إيجاد صراع وخوف أساس، بحيث تصل حالة الفرد إلى درجة أنْ يكون فيها متلهّفاً للخلاص، ويرافق ذلك نتيجة الإحساس بالذنب، وجعل حالة

(١) الرَّأي العام وطرق قياسه: فؤاد دياب، القاهرة، الدَّار القوميَّة، ١٩٦٢م، ص ٧.
(٢) غسل الدّماغ: د. فخرى الدباغ، بيروت، المؤسسة اللبنانية للنشر، بدون تاريخ، ص ٣٤.
(٣) مراسلات في الإعلام والحرب النَّفْسِيَّة: فريق أيار، مطبعة الأديب البغدادية، ١٩٧٣م، ص ٦٨.

التشكيك لديه، وتعريضه للمرض الجسمي، والعقلي، والضغط الفسيولوجي.

[٢] تستخدم مع الفرد اللين، والمهادنة، والتساهل، والدِّقة، والاعتذار عن المعاملة السابقة، وإظهار الصداقة له.

[٣] يفهم الفرد بعد ذلك إذا ما اعترف، فإنَّ المعاملة له ستزداد تحسُّناً، ويمكن أن يعيش.

[٤] وتأتي بعدها عملية الإقناع، وهي عملية إعادة تعليم الفرد، بحيث ينقد نفسه إلى أنْ يصل إلى الاعتراف النَّهائي.

[٥] ثم يحدث تغيُّر مفهوم الذَّات لدى الفرد باستخدام أساليب مثل: التقويم الإيحائي، أو الإيحاء النَّفسي.

[٦] يتم محو الأفكار المراد محوها نهائياً.

[٧] تقديم الأفكار الجديدة، ويشجِّع الفرد على تعلُّم معايير سلوكية جديدة وأدوار اجتماعية جديدة، وبذلك يتم تحويله إلى فرد جديد.

ولما كان الإسلام هو دين الفطرة؛ فإنَّه لا يحتاج إلى اتّباع هذه الطرق التي تمتهن كرامة الإنسان؛ بل خاطب الإنسان خطاب الفطرة ليهتدي. وبالرجوع إلى الإسلام نجد أنَّ القرآن الكريم هو كتاب موحى إلى الرسول الخاتم ﷺ ليغسل أفكار البشرية من معتقدات محرَّفة، وأخرى وضعها الإنسان. ولعلَّ أسلوبه في الدَّعوة يعبِّر عن قوته في الإقناع، قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾ [النحل: ١٢٥].

إنَّ الحكمة والموعظة الحسنة جديرة بأنْ تغسل المخ، لا الممارسات الراعنة التي تمارس ويُراد بها غسيل المخ.

إنَّ مجاهدات الرسول ﷺ الدَّعوية على امتداد فترات الصراع بين الحقّ والباطل ما هي إلاَّ عملية محو لآثار وثنية جاهلية، لتحلّ محلّها أفكار الحق، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾

[الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [آل عمران: ١٣٨].

الحصار الاقتصادي:

يُقْصَد بالضغوط الاقتصادية "قيام دولة أو مجموعة دول بممارسة الوسائل لحمل دولة معيَّنة على تغيير سياستها، والانصياع لمشيئتها، عن طريق ممارسة إجراءات اقتصادية ضدّها، والتضييق على مصالحها"(١).

ويستهدف من هذا الأسلوب منع وصول الأطعمة والمواد الضرورية إلى العدو، وتجميد إمكانياته الامتيازية "البضائع المنتجة في بلاده". إنَّ هذا يؤدي إلى الجوع والحرمان الذي من شأنه أنْ يوجد أزمة نفسيّة ونقمة متزايدة، "وتمارس الضغوط الاقتصادية بطرق متعدّدة، منها: الحصار الاقتصادي والمقاطعة الاقتصادية، كالتي تمارسها الدُّول العربية إزاء إسرائيل، وإيقاف تنفيذ برامج المساعدات الاقتصادية، وتزييف العملة بقصد إسقاط الموازنة بين النَّقد المتداول وذلك الموجود في البنوك، الأمر الذي يؤدي حتماً إلى هبوط قيمة العملة"(٢).

من صور الضغط الاقتصادي في الإسلام ما مارسه المسلمون على اليهود بقطع نخيلهم. فعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ رسول الله ﷺ حرَّق نخل بني النضير، وهي البويرة، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الحشر: ٥](٣).

الاستعراض السَّياسي والعسكري:

(١) تخطيط وإدارة الحرب النَّفْسِيَّة في الجيوش: جاسم محمد جاسم، مطبعة كلية الحرب، العراق، بدون تاريخ، ص ٣٦.

(٢) سلسلة الثقافة الثورية، مرجع سابق، ص ١٨.

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم ٤٨٨٤، المجلد ٨، أصل الخبر في السيرة النبوية للإمام الذهبي، ص ١٧٩، عن ابن عباس بسند ضعيف، وكذلك عند ابن سعد في الطبقات، ٢٧٠/٣ بأسانيد ضعيفة.

أول استعراض قام به المسلمون بمكة عندما أسلم عمر ﷺ، وقد كان لهذا الاستعراض الأثر البالغ لمجريات الأحداث، روى مجاهد عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: سألتُ عمر بن الخطاب ﷺ: لأي شيء سميت الفاروق؟ قال: أسلم حمزة قبلي بثلاثة أيام ـ ثم قصَّ عليه قصة إسلامه ـ وقال في آخرها قلت ـ أي حين أسلمت ـ: يا رسول الله، ألسنا على الحق إنْ متنا أو حيينا؟ قال: (بلى والذي نفسي بيده، إنَّكم على الحقّ، وإنْ متم وإنْ حييتم) قال: قلت ففيم الاختفاء؟ والذي بعثك بالحق لنخرجنَّ فأخرجناه في صفين، حمزة في أحدهما، وأنا في الآخر ، له كديد ككديد الطحين، حتى دخلنا المسجد، قال: فنظرت إليَّ قريش وإلى حمزة، فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها، فسمَّاني رسول الله ﷺ (الفاروق) يومئذ(١).

قال ابن مسعود ﷺ: "ما زلنا أعزّة منذ أنْ أسلم عمر، كان إسلامه فتحاً، وكانت هجرته نصراً، وكانت إمارته رحمة"(٢).

تحدَّث القرآن الكريم عن الاستعراض العسكري، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ [الصف: ٤]. حيث يظهر الاستعراض هنا وفي المواقف الحاسمة.

ومن نماذج الاستعراض أيضاً ما قام به الصحابي أبو دجانة في غزوة أُحد حين أمسك الرسول ﷺ، بسيفه فقال: من يأخذ هذا السيف بحقّه؟ فأقبل أبو دجانة قائلاً: أنا آخذه بحقِّه، فأعطاه إيّاه، فأخرج أبو دجانة عصابة حمراء فعصب بها رأسه، ثم راح يتبختر بين الصُّفوف، فقال رسول الله ﷺ: (إنَّها لمشية يبغضها الله إلاَّ في مثل هذا الموطن)(٣).

ومن النَّماذج للاستعراض في الإسلام، استعراض المسلمين في عمرة القضاء، فقد دخل رسول الله ﷺ مكة في عمرة القضاء راكباً على

(١) تاريخ عمر بن الخطاب: لابن الجوزي، ص ٧، أصل الخبر في السيرة النبوية للإمام الذهبي، ص ١٧٩، عن ابن عباس بسند ضعيف، وكذلك عند ابن سعد في الطبقات، ٢٧٠/٣ بأسانيد ضعيفة.

(٢) دليل الفالحين لشرح طرق رياض الصالحين: محمد بن علان، بدون مكان طباعة وبدون تاريخ، ٣٩/١، أصل الأثر عند ابن هشام، ٤٢٢/١، من رواية ابن إسحاق بإسناد ضعيف.

(٣) سيرة ابن هشام: مطابع دار البيان الحديثة، القاهرة، ط/١، ٢٠٠١م، ٢١/٣.

ناقته القصواء، وتوشَّح المسلمون السيوف، محدقون برسول الله ﷺ يلبون، وخرج المشركون إلى جبل قيقعان ـ الجبل الذي في شمال مكة ـ ليروا المسلمين، وقد قالوا فيما بينهم: إنَّه يقدم عليكم وقد وهنتهم حمى يثرب، فأمر النبي ﷺ أصحابه أنْ يرملوا الأشواط الثلاثة، وأنْ يمشوا ما بين الرُّكنين، ولم يمنعه أنْ يأمرهم أنْ يرملوا الأشواط كلها إلاَّ الإبقاء، وإنَّما أمرهم بذلك ليرى المشركون قوته[1]، كما أمرهم بالاضطباع، أي أنْ يكشفوا الناكب اليمنى، ويضعوا طرفي الرداء على اليسرى.

ودخل رسول الله ﷺ مكة من الثنية التي تطلعه على "الحجون"، وقد صَفَّ المشركون ينظرون إليه، فلم يزل يلبي حتى استلم الركن بمحجنه، ثم طاف وطاف المسلمون، وعبد الله بن رواحة بين يدي رسول الله ﷺ يرتجز متوشحاً بالسيف :

خلو بني الكفار عن سبيله	خلوا فكل الخير في رسوله
قد أنزل الرحمن في تنزيله	في صحف تتلى على رسوله
يا ربِّ إني مؤمنٌ بقيله	إني رأيت الحقَّ في قبوله
بأنَّ خير القتل في سبيله	اليوم نضربكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله	ويذهل الخليل عن خليله

وفي حديث أنس، فقال عمر: يا ابن رواحة بين يدي رسول الله ﷺ!! وفي حرم الله تقول الشِّعْر؟ فقال له النَّبي ﷺ: (خَلِّ عنه يا عمر، فلهو أسرع فيهم من نضح النَّبل)[2].

ورمل رسول الله ﷺ والمسلمون ثلاثة أشواط، فلما رآهم المشركون قالوا: هؤلاء الذين زعمتم أنَّ الحمى قد وهنتهم، هؤلاء أجلد من كذا وكذا[3].

ومن الاستعراض ما جاء في قصة سليمان عليه السلام مع بلقيس ملكة سبأ، كما جاءت في القرآن الكريم: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا

(١) صحيح البخاري، ٢١٨/١، ٦١١/٢، صحيح مسلم، ٤١٢/١.
(٢) رواه الترمذي، أبواب الاستئذان، باب ما جاء في إنشاد الشعر، ١٠٧/٢، وقال: "حديث حسن غريب".
(٣) صحيح مسلم، ٤١٢/١.

وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ [النمل: ٣٦-٤٤].

ونأخذ من خبر سليمان عليه السلام مع بلقيس الأمور الآتية(١):

[١] حشد القوة الماديّة، والأدبيّة، والعسكريّة، والعلميّة، في استقبال العدو لأخذه، ولسلب لبّه، وتحطيم أعصابه.

[٢] اختيار مكان المقابلة، ليكون حيث تبرز فيه دلائل القوة، والعزة، والثراء، من عمارة البناء والمصانع وما إلى ذلك.

[٣] اختيار الأوضاع الخاصة بالجلوس، فتراعى وضعية القائد، وبروز منزلته، ومقام الجند من حوله، ومكان العدو أو رسوله، بحيث يكون الأخير في مكان تسهل على المراقبين مراقبته بدقة؛ بل ويسهل التأثير عليه بأوضاع الجالسين معه أو مستقبله أو المفاوضين له.

[٤] اختيار الزمان، بحيث يكون في الوقت الذي تكون فيه أعصاب المستهدف هادئة، مستريحة، ونفسيته مهيأة للسيطرة والتسلُّط، وإرادته

(١) هذا الاستنتاج نُشِرَ بإصدارة أمانة القوات المسلحة، الإتحاد الاشتراكي السُّوداني، بلا تاريخ ومكان نشر.

متمكّنة من القدرة على تسيير دفة الحديث، وفي وقت تكون فيه طبيعة العدو في درجة التهافُت في نفسه.

[٥] اختيار الأعوان والحاشية من أهل الحرب، والسَّياسة، والعلم، والصَّناعة، والاقتصاد، والبأس.

[٦] اختيار مواضيع الحديث، بحيث لا تعدو النَّواحي العليا للإسلام، والنَّاحية الخاصّة التي من أجلها كان هذا الاجتماع، مع استصحاب فكرة القطع في الأمر، وسيطرة العقيدة الإسلامية، وحسم النزاع في الحال.

[٧] اختيار أسلوب الحديث، بحيث يكون مقتضباً عند الإجابة، هجومياً عند السؤال، مباغتاً عند الانتقال، صريحاً عند الطلب، قضائياً عند الحكم، غليظاً عندما يحاول العدو أنْ يجد لنفسه مجالاً، رقراقاً وعاطفياً عندما يكون الحديث في الإطار الإنساني. وكل ذلك في هدوء وصدق أو ترفُّع كريم.

[٨] العناية بوضع برامج الانتقالات، ومفاجأة العدو بأيّة أبعاد أخرى من آيات القوة والصناعة.

[٩] استخدام العلم بمصطلحاته ووسائله للطغيان على مدارك الخصم وقواه، وحشد كل القوة لتحطيم مقاومته المعنوية، فلعلّه يسقط بهذه الحرب قبل أنْ يلجأ إلى الميدان، ويوفِّر على الإنسانية إراقة الدماء.

[١٠] إخفاء كل شيء يدلُّ على ضعف أو نقص أو تهاون عن عين العدو والحذر من أنْ يُرى شيءٌ من ذلك.

[١١] الإيحاء للعدو في كل حال بالمبدأ، والوسيلة، والغاية الإسلامية، وتفهيمه بكل لغة من غير إلحاح، ولا سبيل إلى التفاهم على غير ذلك. وأنَّه لا رضى للمسلمين إلاَّ بما يرضي الله تعالى.

[١٢] إذا نجح القائم بهذا الأمر واطّمأن على نتيجة تدبيره شكر الله تعالى على ذلك، واعتبر عمله جهاداً خالصاً في سبيل الله ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: ٤٠].

الخدعة:

من أساليب الحرب النَّفْسِيَّة في الإسلام الخدعة، حيث مارسها المسلمون في صدر الإسلام. وقد كانت نتائجها طيبة في زعزعة ثقة المشركين فيما بينهم. ومثال ذلك قصة دور نعيم بن مسعود ﷺ في غزوة الأحزاب وتخذيله بني قريظة عن الأحزاب.

فعن ابن إسحاق قال : فبينما الناس على خوفهم، أتى نعيم بن مسعود الاشجعي رسول الله ﷺ، قال ابن إسحاق: فحدثني رجل عن عبد الله بن كعب بن مالك. قال: جاء نعيم بن مسعود الأشجعي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني قد أسلمتُ، ولم يعلم بي أحد من قومي، فمُرْني أمرك.

فقال له رسول الله ﷺ: (إنَّما أنت فينا رجل واحد، فخذِّل عنَّا ما استطعت، فإنَّما الحرب خدعة).

فانطلق نعيم بن مسعود ﷺ، حتى أتى بني قريظة، فقال لهم: يا معشر قريظة ـ وكان لهم نديماً في الجاهلية ـ إني لكم نديم وصديق، قد عرفتم ذلك، فقالوا: صدقت. فقال: تعلمون والله ما أنتم وقريش وغطفان من محمد بمنزلة واحدة، إنَّ البلد لبلدكم، وبه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، وإنَّ قريشاً وغطفان بلادهم غيرها، وإنَّما جاءوا حتى نزلوا معكم، فإنْ رأوا فرصة انتهزوها، وإنْ رأوا غير ذلك رجعوا إلى بلادهم وأموالهم ونسائهم وأبنائهم، وخلوا بينكم وبين الرجل، فلا طاقة لكم به، وإنْ هم فعلوا ذلك فلا تقاتلوا حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم، تستوثقون به منهم ألاَّ يبرحوا حتى يناجزوا محمداً.

فقالوا له: لقد أشرت برأي ونصح.

ثم ذهب إلى قريش فأتى أبا سفيان وأشراف قريش، فقال: يا معشر قريش، إنَّكم قد عرفتم ودّي إيّاكم، وفراقي محمداً ودينه، وإني قد جئتكم بنصيحة، فاكتموا عليّ. فقال: نفعل، ما أنت عندنا بمتّهم. فقال: تعلمون إنَّ بني قريظة من يهود، قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، فبعثوا إليه: ألا يرضيك منَّا أنْ نأخذ لك من القوم رهناً من أشرافهم، ونرفعهم إليك فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك عليهم، حتى تخرجهم من بلادك؟ فقال: بلى، فإنْ بعثوا إليكم يسألونكم نفرًا من رجالكم فلا تعطوهم رجلاً واحداً واحذروا.

ثم جاء غطفان، فقال: يا معشر غطفان قد علمتم أني رجل منكم، قالوا: صدقت، فقال لهم كما قال لهذا الحي من قريش.

فلما أصبح أبو سفيان، وذلك يوم السبت في شوال سنة خمس، وكان مما صنع الله به لرسوله ﷺ، بعث إليهم أبو سفيان بن حرب عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش، أنَّ أبا سفيان يقول لكم: يا معشر يهود، إنَّ الكراع والخف قد هلكا، وإنَّا لسنا بدار مقام، فاخرجوا إلى محمد نناجزه، فبعثوا إليه: إنَّ اليوم السبت هو يوم لا نعمل فيه شيئاً، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم، حتى تعطونا رهناً من رجالكم نستوثق بهم، لا تذهبوا وتدعونا حتى نناجز محمداً. فقال أبو سفيان: قد والله حذرنا هذا نعيم.

فبعث إليهم أبو سفيان إنَّا لا نعطيكم رجلاً واحداً، فإنْ شئتم أنْ تخرجوا فتقاتلوا، وإنْ شئتم فاقعدوا. فقالت يهود: هذا والله الذي قال نعيم، والله ما أراد القوم ألاَّ يقاتلوا معهم، فإنْ أصابوا فرصة انتهزوها، وإلاَّ مضوا فذهبوا إلى بلادهم، وخلوا بيننا وبين الرجل فبعثوا إليهم، إنَّا والله لا نقاتله معكم، حتى تعطونا رهناً، فأبى أنْ يفعل، فبعث الله الريح على أبي سفيان وأصحابه وغطفان، وجنوده التي بعث، فخذلهم الله[1].

ووردت الخدعة في الحديث الذي أخرجه البخاري أيضاً. فعن ابن إسحاق. قال: حدثنا يزيد بن رومان، عن عروة، عن عائشة. قالت: كان نعيم رجلاً نؤماً، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: إنَّ يهود قد بعثت إليّ: إن كان يرضيك عنَّا أنْ تأخذ رجالاً رهناً من قريش وغطفان من أشرافهم، فندفعهم إليك، فتقتلهم، فخرج من عند رسول الله ﷺ فأتاهم، فأخبرهم ذلك، فلما ولّى نعيم، قال رسول الله ﷺ: (إنَّما الحرب خدعة)[2].

مما سبق يتضَّح أثر الخدعة كسلاح نفسي حقَّق الانتصار في صدر الإسلام دون أنْ يتكلَّف الصحابة عناء لقاء الأعداء فتم لهم النَّصر.

الشَّائعة:

(١) سيرة ابن هشام: مطابع دار البيان الحديثة، القاهرة، ٢٠٠١م، ٣/١٤٠-١٤١.

(٢) أخرجه الشيخان: البخاري في كتاب الجهاد، برقم ١٥٧، باب الحرب خدعة، ومسلم في كتاب الجهاد برقم ١٨.

الشائعة هي إحدى أساليب الحرب النَّفْسِيَّة، وهي عبارة عن قول غير مؤكَّد بما يسنده، وهي عبارة عن تلفيق، لذلك تُعرَّف الشائعة بأنَّها: "حديث أو قول أو رواية غير مؤكَّدة تتداولها الألسن بقصد تصديقها"(١).

لا تستخدم الشائعة كأسلوب من أساليب الحرب النَّفْسِيَّة في الإسلام؛ لأنَّه أسلوب غير أخلاقي، وقد استخدمت الشائعة ضدّ المسلمين، ولعل حادثة الإفك تؤكِّد ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النور: ١٩].

وفي غزوة أُحُد أشيع مقتل الرسول ﷺ، مما أثَّر على نفسيّات الصحابة. فقد جاء في سيرة ابن هشام وتفسير ابن كثير: (عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: ما نصر النَّبي ﷺ في موطن كما نصر يوم أحد قال: فأنكرنا ذلك، فقال ابن عباس: بيني وبين من أنكر ذلك كتاب الله عز وجل، إنَّ الله تبارك وتعالى يقول في يوم أُحُد: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٢]. يقول ابن عباس: والحسّ: القتل، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران: ١٥٢]. وإنَّما عَنِيَ بهذا الرُّماة، وذلك أنَّ النَّبي ﷺ أقامهم في موضع، ثم قال: أحموا ظهورنا، فإنْ رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا، وإنْ رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا، فلما غنم رسول الله ﷺ، وأباحوا عسكر المشركين؛ انكفأت الرُّماة جميعاً، فدخلوا في العسكر ينتهبون، ولقد التقت صفوف أصحاب النَّبي ﷺ فهم هكذا، وشبك أصابع يديه، التبسوا فلما دخل

(١) علم النَّفس الاجتماعي: جان بيزنوف، ترجمة هالة، بيروت، منشورات عويدات، ١٩٧٢م، ص ١٠٦.

الرُّماة تلك الحلة التي كانوا فيها، دخل الخيل من ذلك الموضع على أصحاب النَّبي ﷺ وأصحابه أول النَّهار، حتى قتل من أصحاب لواء المشركين سبعة أو تسعة، وجال المسلمون جولة نحو الجبل ولم يبلغوا حيث يقول النَّاس: الغار، إنَّما كانوا تحت المهراس، وصاح الشيطان: قُتِلَ محمد، فلم نشك فيه أنَّه حَقٌّ، فما زلنا كذلك ما نشك أنَّه قد قُتِلَ حتى طلع رسول الله ﷺ بين السَّعدين، نعرفه بتكفّئه إذا مشى، قال : ففرحنا كأنَّه لم يصبنا ما أصابنا[1].

هدي الإسلام في مواجهة الشَّائعات

التثبُّت من الأقوال:

هناك الكثير من الشَّائعات والأقاويل التي تذاع بين النَّاس، وقد لا يكون لها من الحقيقة والواقع سند، وربما ترتَّب على إشاعتها وتداولها أضرار بالغة، وعواقب وخيمة، تعكِّر صفو الجماعة، وتفرِّق الأُمَّة، وتعرُّضها للأخطار.

لذلك كان منهج الإسلام في كل ما يُقال ويثار التثبُّت منه، حتى لا يحدث ما لا يحمد عقباه، فقد ترك الإسلام للفرد والمجموعة أمر التحقُّق مما يقال، صيانة للمجتمع الإسلامي حتى لا يؤخذ بسبب ما يقال. وقد أمرنا الدِّين بأنْ نواجه الأخبار والشَّائعات التي ينشرها النَّاس بالتأكُّد منها أولاً، حتى لا يظلم أحد أو يصاب بسوء، يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الحجرات: ١٦].

ويقول ابن كثير تعليقاً على هذه الآية: "يأمر الله تعالى بالتثبُّت في خبر الفاسق ليحتاط له، لئلا يحكم بقوله فيكون في نفس الأمر كاذباً أو مخطئاً"[2].

(١) تفسير ابن كثير: الحافظ ابن كثير الدمشقي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٢م، ٥٠٦/١.
(٢) تفسير ابن كثير: مرجع سابق، ٢٥٢/٤.

ويقول القاسمي: "﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ أي: فاستظهروا صدقه من كذبه بطريق آخر، كراهة ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ وهم بُرّاء مما قذفوا به، بغية اتهامهم بجهالة لاستحقاقهم إيّاها، ثم يظهر لكم عدم استحقاقهم ﴿فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾ أي فتندموا على إصابتكم إيّاهم بالجناية التي تصيبونهم، وحقّ المؤمن أنْ يحترز مما يخاف منه النَّدم والعواقب"(١).

القضاء على مصدر الفتنة:

من هدي الإسلام في مواجهة الحرب النَّفْسِيَّة التي توجّه إليه القضاء على مصادر هذه الحرب النَّفْسِيَّة، ولعل ما تم في مسجد الضرار شاهد على ذلك، روى ابن كثير عن سعيد بن قتادة وعروة وغيرهم أنَّه كان في المدينة رجل من الخزرج اسمه أبو عامر الراهب، وكان قد تنصَّر في الجاهلية، وله مكانة كبيرة في الخزرج، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة واجتمع المسلمون عليه وصارت للإسلام كلمة عالية؛ شرق أبو عامر بريقه، وأظهر العداوة لرسول الله ﷺ، ثم خرج فارّاً إلى كفار مكة من مشركي قريش يمالئهم على حرب رسول الله ﷺ. ثم إنَّه لما رأى أمر رسول الله ﷺ في تقدُّم وارتفاع، ذهب إلى هرقل (ملك الروم) يستنصره على النَّبي ﷺ، فوعده ومنَّاه، فأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من منافقي المدينة يعدهم بما وعد به هرقل، وأمرهم أنْ يتخذوا له معقلاً يقدم عليه فيه من يقدم من عنده لإعداد كتبه، ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك.

فشرعوا في بنا ء مسجد قريب من مسجد قباء، فبنوه وأحكموه، وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك . وجاءوا فسألوا رسول الله ﷺ أنْ يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم، ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته. ذكروا أنَّهم إنَّما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية. فعصمه الله من الصلاة فيه، وقال: (إنَّا على سفر، ولكن إذا رجعنا إنْ شاء الله)، فلما قفل ﷺ راجعاً إلى المدينة من تبوك ولم يبق بينه

(١) تفسير القاسمي: جمال الدين القاسمي، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط/١، ١٩٩٧م، ٥٢٢/٨.

وبينها إلاَّ يوم أو بعض يوم، نزل عليه جبريل عليه السلام بخبر مسجد الضرار، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين، فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه إلى المدينة[1]، ونزل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة: ١٠٧-١٠٨].

الثبات في مواجهة الشَّائعات:

الثبات من الهدي الإسلامي في مواجهة الشَّائعات، لذلك كان منهج الإسلام في مواجهة الشَّائعات: الثبات. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: (حسبنا الله ونعم الوكيل) قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النَّار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣][2].

أخرج ابن إسحاق في قوله ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ أنَّ ابا سفيان رجع بقريش بعد أنْ توجّه من أُحُد فلقيه معبد الخزاعي، فأخبره أنَّه رأى النَّبي ﷺ في جمع كثير، وقد اجتمع معه من كان تخلَّف عن أُحُد، وندموا فثنى ذلك أبا سفيان وأصحابه فرجعوا، وأرسل أبو سفيان ناساً فأخبروا النَّبي ﷺ أنَّ أبا سفيان وأصحابه يقصدونهم، فقال: (حسبنا الله ونعم الوكيل)[3].

(١) تفسير ابن كثير: مرجع سابق، ٤٧٢/٢.
(٢) صحيح البخاري، حديث رقم ٤٥٦٣.
(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني، دار الريان، ١٩٨٦م، ص ٧٧.

إنَّ أثر الثبات من النَّبي ﷺ وصحابته هو الذي جعل أبا سفيان يعدل عن رأيه، ويصرف التفكير في إعادة الكرة مرة أخرى على المسلمين.

يقول القاسمي مفسِّراً لهذه الآية: "﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ ﴾ أي: الركب المستقبل لهم، ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ ﴾ أي: أبا سفيان وأصحابه، ﴿ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ ﴾ أي: الجموع يستأصلوكم فاخشوهم ولا تأتوهم، ﴿ فَزَادَهُمْ ﴾ أي: ذلك القول، ﴿ إِيمَٰنًا ﴾، أي: تصديقاً بالله. والمعنى أنَّهم لم يلتفتوا إليه ولم يضعفوا؛ بل ثبت به عزمهم على طاعة الرسول ﷺ في كل ما يأمر به وينهى عنه، ﴿ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ ﴾، أي: كافينا أمرهم من غير عدّة لنا ولا عدد، ﴿ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾، أي: الموكول إليه الأمر"[1].

المبحث الثالث
خصائص الحرب النَّفْسِيَّة في الإسلام

الحكمة:

يحمل القرآن الكريم بين دفتيه أصولاً وقواعد للحرب النَّفْسِيَّة، وكل من يتدبَّر كتاب الله عزَّ وجلَّ يقف على حقيقة، مفادها أنَّ تاريخ الأنبياء والمرسلين من لدن سيدنا آدم عليه السلام إلى خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ ما هو إلاَّ صراع بين الحقّ والباطل، استخدمت في هذا الصراع أشكال وأساليب مختلفة من الحرب النَّفْسِيَّة، والحكمة هي محور هذه الاستخدامات النَّفْسِيَّة.

(١) تفسير القاسمي: مرجع سابق، ٤٦/٢-٤٦١.

تكون الحرب النَّفْسِيَّة أحياناً في شكل حوار متبادل بين الحقّ والباطل، يكون فيه الحقّ حكيماً، حيث يظهر القول اللين وعدم الغلظة، كما قال تعالى مخاطباً موسى وهارون ـ عليهما السَّلام ـ: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طـه: ٤٣-٤٤].

كما خاطب المولى عزَّ وجلَّ رسوله الخاتم محمداً ﷺ بقوله ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

في المقابل نجد إفلاس الباطل ويأسه في مقارعة الحُجَّة، وتهوُّره ورجوعه إلى التشفي والانتقام في مواجهة الكلمة، قال تعالى على لسان فرعون وهو يهدِّد سيدنا موسى عليه السلام: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء: ٢٩].

إنَّ المرسلين يستخدمون وسائل وأساليب مختلفة لإيصال رسائلهم وتبليغها، فالحوار هو الصورة الأكثر استخداماً، كما أنَّ المعجزة إحدى أساليب الحرب النَّفْسِيَّة لإقناع المناوئين لينتهي الأمر بالتهديد والوعيد لأولئك الكفار، الذين ما يلبث أنْ يصبح واقعاً عملياً في شكل دمار وإهلاك المناوئين.

يلجأ المرسلون إلى خيار إهلاك وتدمير المعارضين بعد نفاذ كافة السبل، فتتدخَّل السماء لحسم الفوضى، ونستنتج من ذلك أنَّ الحرب النَّفْسِيَّة يجب أنْ تتسم بالمصداقية، سواء على صعيد المعجزات أو المقدرة على الحسم في نهاية الأمر، وتلك سُنَّة الله التي بيَّنها لنا القرآن الكريم، ليصبح التدمير أحد صور الحكمة الإلهية. قال تعالى: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: ٢٧].

الواقعية:

من واقعية الإسلام التجسيد الواقعي، وتصوير الحالة المعنوية والنَّفْسِيَّة بوضوح، سواء كان ذلك فيما يلي المسلمين أو العدو، قال تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١﴾ [الأحزاب: ١٠-١١]، حيث وصفت الآية الحالة النَّفْسِيَّة للصحابة.

كذلك تناولت آيات أخرى حالة المنافقين، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٨ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝١٩﴾ [الأحزاب: ١٨-١٩].

واقعية الحرب النَّفْسِيَّة في الإسلام مستمدة من واقعية الإسلام ذاته، حيث يتعامل مع الكون والإنسان بنظرة واقعية، لذلك فالحرب النَّفْسِيَّة في الإسلام يجب أنْ تنطلق من هذا الواقع، فإنْ كان المستهدفون يؤمنون بالسَّحر فلا بُدَّ أنْ يكون السحر في شكل معجزة منطلقاً للحرب النَّفْسِيَّة، ليحاربوا بذات السلاح الذي يعتقدونه، كما فعل سيدنا موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٣٨ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ۝٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝٤٠ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝٤١ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٤٢ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ۝٤٣ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝٤٤ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝٤٥ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝٤٦ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ

﴿وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الشعراء: ٣٨-٤٨]. وقد تغلَّب سلاح المعجزة هنا على السِّحر انطلاقاً من واقع يؤمنون به.

وإنْ كان المستهدفون برعوا في فن من الفنون؛ فلا بُدَّ أنْ تتفوَّق عليهم، كما هو الحال في التحدّي البلاغي واللُّغوي في القرآن الكريم، حيث تحدّى العرب في لغتهم.

وإنْ لم يكن لهم فن يشتهرون به؛ كان لا بُدَّ من المعجزة التي تجعلهم يؤمنون، كما هو الحال لنبي الله إبراهيم عليه السلام، الذي لم يحترق في النَّار، قال تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الصافات: ٩٥-٩٨].

أو نبي الله صالح عليه السلام الذي كانت ناقته معجزة، ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس: ١٤].

فالحرب النَّفْسِيَّة ـ من وجهة نظر الفكر الإسلامي ـ لا بُدَّ أنْ تنطلق من الواقع، وتؤثِّر على هذا الواقع لتجعله قابلاً للدِّعاية الإسلامية.

إظهار ضعف الخصم:

خصيصة إظهار ضعف الخصم تبدو من خلال الآيات البيّنات التي يذخر بها القرآن الكريم، والتي تلفت نظر الكفار إلى صور مختلفة من المعجزات الكونية، التي تؤكِّد ضعفهم وهوانهم أمامها، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ

بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ [النمل: ٦٠-٦٦].

من خصائص الحرب النَّفْسِيَّة في الإسلام إظهار ضعف الخصم وعجزه عن أنْ يفعل شيئاً تجاه قضية محدّدة تمثِّل محور العقيدة الإسلامية، كالخلق والإبداع، كما تبيِّن الآيات السابقة عجز الخصم عن خلق السماوات والأرض، وإنزال الماء من السماء، فإنبات الأرض، وشق الأنهار. كما تعرَّضت الآيات إلى رحمة الخالق، ووقوفه مع المضطر إذا دعاه، وكشف السوء عن هذا المضطر.

كذلك تحدثت الآيات عن نعم الله تعالى في الهداية في ظلمات البر والبحر، وبدء الخلق والرزق.

أمام هذا التحدّي من الله الخالق المبدع لا يجد الخصم بُداً من الانهيار أمام حقيقة الخالق، كما أنَّ البرهان الذي يسوقه القرآن إلى الخصم ناصع حاسم، لا يترك مجالا سوى الانهيار، وتلك هي أهداف الحرب النَّفْسِيَّة التي ترمي إلى استسلام الخصم، ولعلَّ إظهار ضعف الخصم أقرب الطرق إلى استسلامه وهزيمته.

حتمية انتصار الحقّ:

إنَّ خصائص العمليات النَّفْسِيَّة التي يصوِّرها القرآن الكريم والتي تدور رحاها بين معسكر الحقّ والباطل؛ تبيِّن لنا أنَّ انتصار معسكر الحقّ حتمي، وأنَّ المسألة هي مسألة وقت ليس إلاَّ. لذلك من خصائص الحرب النَّفْسِيَّة في الإسلام حسم المعركة مادياً أو معنوياً لصالح الحقّ، وهكذا

نجد هذه الخصيصة واضحة في سورة القمر، التي تتحدَّث عن مكر الباطل وهزيمته الحتمية، في صورة بيانية واضحة، قال تعالى: ﴿

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ
فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى
أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ
﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا
الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾
فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ
بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ
مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا
النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾
فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً
وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ
قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةً مِنْ
عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ
رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ

﴿ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر: ٩-٤٥].

هذه الآيات تحكي عن رسل يمثِّلون عصوراً مختلفة، وأقواماً مختلفين، ولكن المتدبِّر للآيات يقف عند الطريقة والأسلوب الذي تنتهي به قصة كل رسول وقومه، وهو تبليغ وكفر وتدمير الكفار لينتصر الحقّ.

يتجلى من ذلك أنَّ من خصائص الحرب النَّفْسِيَّة المقدرة على إنجاز الوعيد والانتصار للحقّ، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [يونس: ١٠٣].

هكذا ينصر الله تعالى الرسل والمؤمنين، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [يوسف: ١١٠].

الثَّبات:

ولما كانت منطلقات الحرب النَّفْسِيَّة وخصائصها مستمدة من الإسلام، والذي من خصائصه الثبات في نصوصه القطعيّة؛ فإنَّ خصيصة الثبات هنا تعني أنْ تكون مقارعة الباطل بحُجَّة ثابتة ويقينيّة، ولا مجال للغموض والإبهام، ويجب إبراز الحقّ بمظهر الثبات الذي لا يقبل جدالاً، قال تعالى: ﴿ كِتَـٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [الأعراف: ٢].

فقد أمر المولى عزَّ وجلَّ نبيه بألا يكون في صدره حرج، مما يدلُّ على ثبات الجأش، وعدم التحرُّج، حتى تصل هذه الدَّعوة ما تصبو إليه،

وفي ذات السياق قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء: ٧٣-٧٥].

يأتي ثبات الحقّ هنا من ثبات النَّبي ﷺ، حتى لا يركن إلى أولئك الكفار، فيرضخ إلى ممارستهم النَّفْسِيَّة، فتتأثَّر الدِّعاية الإسلامية بذلك، ليصبح الثبات هو المطلوب لإيصال الدَّعوة الإسلامية في خضم ما يكتنفها من إرجاف، وأنَّ السماء هي التي تتدخَّل لتثبيت المؤمنين، قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: ٢٧].

إنَّ خصيصة الثبات في الحرب النَّفْسِيَّة في الإسلام تتجلى لدى ثبات الرُّسل وهم يجادلون أقوامهم، فينتصرون للحقّ، وذلك عن طريق البراهين الثابتة والحُجَج الدامغة، وأيضاً ثباتهم وهم يواجهون الأذى، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [التوبة: ٥٢].

الإيجابية:

إنَّ إيجابية الحرب النَّفْسِيَّة مستمدّة من إيجابية الإسلام، فلا يعقل أنْ توجَّه حرب نفسيّة محاورها ومنطلقاتها سلبيّة، فالقرآن الكريم يحمل بين دفتيه كل ما هو إيجابي، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ

أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٩].

فهداية القرآن الكريم هي الأفضل مقابل دعاية باطلة تصدر من الكُفَّار، فإيجابية الحرب النَّفْسِيَّة هنا بحكم المصدر الذي أتت منه، وهو القرآن الكريم، فهي التي تنسف دعاوى الجاهلية ومقوِّماتها مقابل توطيد الإسلام، قال المولى عزَّ وجلَّ: ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الملك: ٢٢].

فالحرب النَّفْسِيَّة هنا تحمل كل ما هو إيجابي لفريق المسلمين، وعكس ذلك لغير المسلمين، وحتى على مستوى ممارسة التعبئة الحربية؛ فإننا نجد هذه المعاني الإيجابية للحرب النَّفْسِيَّة في الإسلام، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

حتى المسعى الذي يحسبه الكفار إيجابياً في حقّهم؛ فإنَّ القرآن يبيِّن لهم ضحالة ما ذهبوا إليه، وأنَّه لا يعني شيئاً، ويعكس ذلك في صورة رائعة لممارسات نفسيّة قرآنية تعلي من قيم الإسلام، مقابل التقليل من أولئك الذين يسعون للنَّيل من الإسلام والمسلمين.

كل فعل يفعله المسلم في ظل العمليات الحربية هو فعل إيجابي يثاب عليه، قال سبحانه وتعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ

وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ [آل عمران: ١٢٠].

استمالة غير الأعداء:

من المعروف في الحرب التقليدية وغير التقليدية كثيراً ما يسعى معسكر من المعسكرات لكسب الأصدقاء أو تحييد آخرين، حتى لا ينضموا إلى معسكر العدو.

من خصائص الحرب النَّفْسِيَّة في الإسلام استمالة غير الأعداء، ويتبيَّن ذلك من خلال تعاطف المسلمين عندما غلبت الروم، وهم أهل كتاب، أمام الإمبراطورية الفارسية، وهم مجوس، فبشَّر القرآن الكريم أنَّ الجولة القادمة ستكون في صالح معسكر أهل الكتاب، وفي ذلك استمالة لأهل الكتاب بضرورة بيان أنَّ أصل الدِّين واحد من عند الله تعالى، وهم بذلك أقرب إلى المسلمين ممن سواهم، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ [الروم: ١-٥].

وعلى نهج الإسلام في استمالة الأصدقاء والمحايدين؛ نجد أنَّه أيضاً عندما اشتدّت عداوة اليهود على المسلمين ونبيهم ﷺ، نجده قد ميَّز بين أهل الكتاب، ففضَّل النَّصارى على اليهود والذين أشركوا، قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [المائدة: ٨٢].

وفي ذات السياق وضمن ممارسة الدِّعاية الإسلامية؛ فإنَّ القرآن الكريم يستميل أهل الكتاب ويدعوهم إلى ضرورة جمع الصف، قال

تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

وسعياً وراء كسب العناصر للدَّعوة نجد أنَّ القرآن الكريم يخاطب بالإضافة إلى أهل الكتاب فئات أخرى محايدة، قال تعالى: ﴿يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة: ٨].

تعتمد الحرب النَّفْسِيَّة على الدِّعاية، وهي دعوة الغير لاعتناق مبدأ ما، ولما كان الإسلام في أصله دعوة؛ فإنَّ مهمة الإسلام هي استمالة الناس ودعوتهم، لتصبح هذه الخصيصة أيضاً هي الهدف الأسمى للإسلام.

خاتمة:

الحرب النَّفْسِيَّة هي سلاح العصر الذي يفتك بالخصم، ووجود هذا الفنّ في القرآن الكريم واستخدامه من لدن أبينا آدم عليه السلام لدليل على قِدَمِ الحرب النَّفْسِيَّة وأهميتها.

تناول البحث تاريخ وأهداف الحرب النَّفْسِيَّة، بعد أنْ عرَّفها كفن وعلم من علوم القتال، ولكنها تتميّز بعدم استخدام القوة المباشرة؛ بل ما يُعرف بـ (القوة الذكية) والعقل.

كما تناول البحث أساليب الحرب النَّفْسِيَّة في الإسلام، وكيف حُصِّنَ الرسول ﷺ ضد عمليات الكفار النَّفْسِيَّة، وجاء في أساليب الإسلام ما اصطلح عليه (غسل الدّماغ)، وذلك بإزالة القرآن للأفكار الفاسدة، والمعتقدات الباطلة.

ومن أساليب الحرب النَّفْسِيَّة في صدر الإسلام ما يُعرف الآن بـ (الحصار الاقتصادي). كما تتضمن الأساليب الاستعراض العسكري (المناورات)، إلى غير ذلك من الأساليب .

أمَّا خصائص الحرب النَّفْسِيَّة في الإسلام؛ فهي التي تميّزها عن غيرها، وتجعل أثرها أكبر، لاعتمادها على الحكمة، والثبات، والإيجابية، والواقعية، واستمالة غير الأعداء.. إلى غير ذلك من خصائص تميّزت بها الحرب النَّفْسِيَّة في الإسلام.

وفي ختام هذه الدّراسة توصَّل الباحث إلى عدد من النتائج والتوصيات، نوجزها كما يلي:

أولاً: النتائج:

[١] الحرب النَّفْسِيَّة قديمة قدم التاريخ الإنساني، حيث بدأت استخداماتها من قِبَل إبليس ـ عليه اللَّعنة ـ بتضليله لأبي البشر نبي الله آدم عليه السلام قبل أنْ ينزل إلى الأرض.

[٢] في القرآن الكريم نماذج لأساليب ووسائل الحرب النَّفْسِيَّة تبيِّن أصول هذا الفن من خلال مواقف الأنبياء والرسل مع أقوامهم.

[٣] توجد في الإسلام خصائص للحرب النَّفْسِيَّة تميّزها عن غيرها، وتبرز الإسلام بأنَّه سبَّاق في هذا المجال، الذي ولجت إليه الحضارات مؤخَّراً كسلاح لردع الخصم.

[٤] تستند الحرب النَّفْسِيَّة في الإسلام على قيم أخلاقية، ولا تلجأ إلى الأساليب التي تمتهن كرامة الإنسان كما هو سائد اليوم في العمليات النَّفْسِيَّة المعاصرة.

[٥] هناك دروس وعِبَر يمكن أنْ تؤخذ من مواقف الأنبياء والرسل ـ عليهم السَّلام ـ وصمودهم أمام أعدائهم، فبذلك يتسلَّح الدعاة، وهم على يقين من نصر الله في نهاية الأمر، وهي خصيصة حتمية (انتصار الحقّ على الباطل).

[٦] التحصين النفسي في الإسلام من أنجع أساليب الوقاية من حرب الأعداء النَّفْسِيَّة، وقد حصّن القرآنُ الرسولَ ﷺ من حرب الأعداء النَّفْسِيَّة، مما مكّنه على حمل الرسالة وتبليغها.

ثانياً: التوصيات:

[١] ضرورة اعتماد أساليب ووسائل الحرب النَّفْسِيَّة التي وردت في القرآن الكريم والسَّنَّة النبوية والتاريخ الإسلامي ضمن المقررات بمراكز التدريب والمعاهد والكليات العسكرية.

[٢] مواصلة البحث ودراسة الحرب النَّفْسِيَّة في الإسلام وربطها بالواقع لتحصين الأُمَّة المسلمة من أثر الحرب النَّفْسِيَّة التي تتعرض إليها هذه الأيام.

[٣] مراقبة الأداء الإعلامي حتى لا يقع المسلمون في شباك وحيل الأعداء، الذين يتربصُّون بالأُمَّة المسلمة شراً، فالحرب النَّفْسِيَّة اليوم من أهم أدوات الصراع الحضاري.

[٤] اعتماد مادة الحرب النَّفْسِيَّة وتعميمها على المؤسسات العلمية بالبلاد المسلمة، لكشف مخطّطات الأعداء وأساليبهم للنيل من الأُمَّة المسلمة.

[٥] إنشاء مراكز لبحوث ودراسات الحرب النَّفْسِيَّة، لدراسة عمليات العدو النَّفْسِيَّة التي تهدف إلى غزو المسلمين ثقافياً وفكرياً، واستلابهم حضارياً، وتعميق بحوث ودراسات الحرب النَّفْسِيَّة بالمؤتمرات والنَّدوات العلميّة.